/ وسئل شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى : ١/١٤٠

هل يجوز التوسل بالنبى ﷺ أم لا ؟

فأجاب :

الحمد لله ، أما التوسل بالإيمان به ، ومحبته وطاعته ، والصلاة والسلام عليه ، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك ، مما هو من أفعاله ، وأفعال العباد المأمور بها فى حقه ، فهو مشروع باتفاق المسلمين ، وكان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يتوسلون به فى حياته ، وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه ، كما كانوا يتوسلون به .

وأما قول القائل : اللهم إنى أتوسل إليك به . فللعلماء فيه قولان ، كما لهم فى الحلف به قولان . وجمهور الأئمة ـ كمالك والشافعى وأبي حنيفة ـ على أنه لا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء والملائكة . ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، والرواية الأخرى تنعقد اليمين به خاصة دون غيره ؛ ولذلك قال أحمد فى منسكه الذى كتبه للمروذى [١] صاحبه : إنه يتوسل بالنبى ﷺ فى دعائه ، ولكن غير أحمد قال : إن هذا إقسام على الله به ، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد فى إحدى الروايتين قد جوز القسم به ، فلذلك جوز التوسل به .

ولكن الرواية الأخرى عنه ـ هى قول جمهور العلماء ـ أنه لا يقسم به ، / فلا يقسم ١/١٤١
على الله به كسائر الملائكة والأنبياء ، فإنا لا نعلم أحداً من السلف والأئمة قال : إنه يقسم به على الله كما لم يقولوا : إنه يقسم بهم مطلقا ؛ ولهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام : أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم ، لكن ذكر له أنه روى عن النبى ﷺ حديث فى الإقسام به فقال : إن صح الحديث كان خاصاً به ، والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به ، وقد قال النبى ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت » [٢] ، وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » [٣] ، والدعاء عبادة ، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع ، لا على الهوى والابتداع . والله أعلم .

---

(١) أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروذى ، صاحب الإمام أحمد ، حدث عن أحمد بن حنبل ولازمه وعن هارون بن معروف ومحمد بن منهال وروى عنه أبو بكر الخلال وعبد الله الخرقى ، ولد فى حدود المائتين ، وتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٣ / ١٧٣ ـ ١٧٥] .

(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٦٣ .

١/١٤٢ / وقال شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً ، أرسله بين يدى الساعة بشيراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة ، وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغى ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما وقلوبا غلفا ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

ففرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار ، وبين أوليائه وأعدائه . فالحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله .

وقد أرسله الله إلى الثقلين الجن والإنس ، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به
١/١٤٣ ويتبعه فى باطنه وظاهره . والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله ، وهو دين الله ، / وهو عبادة الله ، وهو طاعة الله ، وهو طريق أولياء الله ، وهو الوسيلة التى أمر الله بها عباده فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] . فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد واتباعه .

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد ، باطناً وظاهراً ، فى حياة رسول الله ﷺ وبعد موته ، فى مشهده ومغيبه ، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق فى حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ، ولا بعذر من الأعذار . ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته .

وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاها عند الله ، وقد قال تعالى عن موسى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] ،وقال عن المسيح : ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ [آل عمران : ٤٥] . ومحمد ﷺ أعظم جاها من جميع الأنبياء والمرسلين ، لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له ، فمن دعا له الرسول وشفع له

توسل إلى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته ، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بدعائه وشفاعته ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

ولفظ التوسل فى عرف الصحابة كانوا يستعملونه فى هذا المعنى . والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به ، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغنى عنهم شفاعة الشافعين فى الآخرة .

/ ولهذا نهى عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ، ونهى عن الاستغفار ١/١٤٤
للمنافقين وقيل له : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُم ﴾ [المنافقون : ٦] ، ولكن الكفار يتفاضلون فى الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان فى الإيمان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ٣٧] .

فإذا كان فى الكفار من خف كفره بسبب نصرته ومعونته ، فإنه تنفعه شفاعته فى تخفيف العذاب عنه لا فى إسقاط العذاب بالكلية ، كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : قلت : يا رسول الله ، فهل نفعت أبا طالب بشيء ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : « نعم هو فى ضَحْضَاح [١] من نار ، ولولا أنا لكان فى الدَّرْكِ الأسفل من النار » [٢] ، وفى لفظ : إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك؟ قال : « نعم ، وجدته فى غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح » [٣] ، وفيه عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كَعْبَيه يغلى منهما دماغه » [٤] ، وقال : « إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه » [٥] .

وكذلك ينفع دعاؤه لهم بألا يُعَجل عليهم العذاب فى الدنيا كما كان ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » [٦] . وروى أنه دعا بذلك أن اغفر لهم فلا تعجل عليهم العذاب فى الدنيا ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر : ٤٥] .

/ وأيضا ، فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه ، كما دعا ١/١٤٥

---

(١) تقدم معناها .

(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٨٩ . (٤ ، ٥) سبق تخريجهما ص ٩٠ .

(٦) البخارى فى الأنبياء (٣٤٧٧) ، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٢ / ١٠٥) ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠٢٥) ، وأحمد ١/ ٣٨٠ ، ٤٢٧ ، كلهم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

لأم أبى هريرة حتى هداها الله [1] ، وكما دعا لدوس فقال : « اللهم اهد دوساً وائت بهم » [2] ، فهداهم الله ، وكما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم ، فاستسقى لهم [3] ، وكان ذلك إحسانا منه إليهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك .

وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهاً عند الله ، لا جاه لمخلوق عند الله أعظم من جاهه ، ولا شفاعة أعظم من شفاعته ، لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم ، فإن الإيمان بهم وطاعتهم يوجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقاً وعاماً ، فكل من مات مؤمنا بالله ورسوله مطيعاً لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعاً ، ومن مات كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً .

وأما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع ، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ـ ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً ـ فلا شفيع أعظم من محمد ﷺ ثم الخليل إبراهيم ، وقد دعا الخليل إبراهيم لأبيه واستغفر له ، كما قال تعالى عنه : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وقد كان ﷺ أراد أن يستغفر لأبى طالب اقتداء بإبراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنزل الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ [التوبة : ١١٣] .

١/١٤٦ / ثم ذكر الله عذر إبراهيم فقال : ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾ [التوبة : ١١٤، ١١٥]،وثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « يَلْقَى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، أنت وعدتنى ألا تُخْزِنى يوم يُبْعَثون،وأي خِزْى أخْزَى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل : إنى حرَّمتُ الجنة على الكافرين ، ثم يقال : انظر

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩١ / ١٥٨) ، وأحمد ٢/ ٣٢٠ كلاهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) البخارى فى الدعوات (٦٣٩٧) ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٢٤ / ١٩٧) ، وأحمد ٢ / ٢٤٣ كلهم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٣) أبو داود فى الصلاة (١١٧٣) عن عائشة .

ما تحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ مُتَلَطِّخ (١) ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » (٢) ، فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار إبراهيم مع عظم جاهه وقدره ، وقد قال تعالى للمؤمنين : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الممتحنة : ٤ ، ٥] . فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه ، إلا فى قول إبراهيم لأبيه : ﴿ **لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** ﴾ فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى » (٣) . وفى رواية : أن النبى ﷺ / زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال : ١/١٤٧
«استأذنتُ ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ، فزروا القبور،فإنها تُذَكِّر الموت » (٤) . وثبت عن أنس فى الصحيح أن رجلا قال :يا رسول الله ، أين أبى ؟ قال : « فى النار » ، فلما قفى دعاه فقال :« إن أبى وأباك فى النار»(٥) .
وثبت أيضاً فى الصحيح عن أبى هريرة : لما أنزلت هذه الآية:﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخصَّ فقال : « يا بنى كعب ابن لؤى ، انقذوا أنفسكم من النار . يا بنى مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة ، أنقذى نفسك من النار ،فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ،غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها (٦) » (٧) ،وفى رواية عنه : « يا

---

(١) الذَّبح : ذكر الضباع ،وأراد بالتلطخ : التلطخ برجيعه أو بالطين . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٢ / ١٧٤ .
(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٥٠) .
(٣) مسلم فى الجنائز (٩٧٦ / ١٠٥) .
(٤) مسلم فى الجنائز (٩٧٦ / ١٠٥ مكرر) ، وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣٤) ، والنسائى فى الجنائز (٢٠٣٤) ، وابن ماجه فى الجنائز (١٥٧٢) ، وأحمد ٢ / ٤٤١ كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٥) مسلم فى الإيمان (٢٠٣ / ٣٤٧) .
(٦) أى أصلكم فى الدنيا ، ولا أُغنى عنكم من الله شيئاً ، والبلال جمع بلل ، وقيل : هو كل ما بلَّ الحلق من ماء أو لبن أو غيره ، انظر : النهاية فى غريب الحديث ١ / ١٥٣ .
(٧) مسلم فى الإيمان (٢٠٤ / ٣٤٨) .

معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى عبد المطلب ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت رسول الله ، سلينى من مالى ما شئت ،لا أغنى عنك من الله شيئا» (١) .وعن عائشة لما نزلت: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قام رسول الله ﷺ فقال: « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا . سلونى من مالى ما شئتم » (٢) .

وعن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً ذات يوم فذكر الغُلُول فعظَّمه وعظَّم أمره ثـم قـال : « لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رَقَبَته بعير لَهُ رُغَاء (٣) يقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً / قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم ١/١٤٨
يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَمَةَ (٤) فيقول : يا رسول الله ، أغثنى .فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحـدكم يجىء يـوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغَاء (٥) ، فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق (٦) فيقول: يا رسول الله، أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت(٧) فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك » أخرجاه فى الصحيحين (٨) ، وزاد مسلم: « لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح . فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول: لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك » (٩) . وفى البخارى عنه أن النبى ﷺ قال : « ولا يأتى أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَار (١٠) فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت . ولا يأتى

---

(١) مسلم فى الإيمان (٢٠٦ / ٣٥١) ، عن أبى هريرة .

(٢) مسلم فى الإيمان (٢٠٥/ ٣٥٠) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٨٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) الرُّغاء : صوت الإبل . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٢ / ٢٤٠ .

(٤) الحمحمة : صوت الفرس دون الصهيل . انظر : النهاية فى غريب الحديث ١ / ٤٣٦ .

(٥) الثُّغاء : صياح الغنم . انظر: النهاية فى غريب الحديث ١ / ٢١٤ .

(٦) أراد بالرِّقاع : ما عليه من الحقوق المكتوبة فى الرقاع ، وخفوقها : حركتها . انظر: النهاية فى غريب الحديث ٢/ ٢٥١ .

(٧) صامت : يعنى الذهب والفضة ، خلاف الناطق وهو الحيوان . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٣ / ٥٢ .

(٨) البخارى فى الجهاد (٣٠٧٣) ، ومسلم فى الإمارة (١٨٣١ / ٢٤) .

(٩) مسلم فى الإمارة (١٨٣١ / ٢٤) .

(١٠) اليُعار : صياح الشاة . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٥ / ٢٩٧ .

أحدكم ببعير يحمله على رقبته له رُغَاء فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت » (١) . وقوله هنا ﷺ : « لا أملك لك من الله شيئا » كقول إبراهيم لأبيه : ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهى نافعة فى الدنيا والدين باتفاق المسلمين ، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة فى زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين . وقد قيل : إن بعض أهل البدعة ينكرها .

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية ، وقال هؤلاء : من يدخل النار لا يخرج منها / لا بشفاعة ولا غيرها ، وعند ١/١٤٩
هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ، ولا يجتمع عندهم فى الشخص الواحد ثواب وعقاب . وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم ، فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ أن الله يخرج من النار قوماً بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم ، يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره ، ويخرج قوماً بلا شفاعة .

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة : ٤٨] ، وبقوله : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة : ١٢٣] ، وبقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، وبقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : ١٨] ، وبقوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] .

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان :

أحدهما : أنها لا تنفع المشركين ، كما قال تعالى فى نعتهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ . فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٢ ـ ٤٨] ، فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفاراً .

والثانى : أنه يراد بذلك نفى الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك ، ومن شابههم من أهل البدع ، من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا

(١) البخارى فى الزكاة (١٤٠٢) .

١/١٥٠ عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل / المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة .

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله ، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يتوسل إلى الملوك بخواصّهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذي يَشْفَعُ عندَهُ إلاَّ بإذْنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥]، وقال: ﴿ وكَم مّن مَّلَك في السَّمَوَات لا تُغْني شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلاَّ منْ بَعْد أن يَأْذَنَ اللَّهُ لمَن يَشَاءُ ويَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦] ، وقال عن الملائكة : ﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبقُونَهُ بالْقَوْل وَهُم بأَمْره يَعْملُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْديهمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لمَن ارْتَضَىٰ وَهُم مّنْ خَشْيَته مُشْفقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٨] ، وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم مّن دُون اللَّه لا يَملْكُونَ مثْقَالَ ذَرَّة في السَّمَوَات وَلا في الأَرْض وَمَا لَهُمْ فيهمَا من شرْك وَمَا لَهُ منْهُم مّن ظَهير . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عندَهُ إلاَّ لمَنْ أَذنَ لَه ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] ، وقال تعالى: ﴿ ويَعْبُدُونَ من دُون اللَّه مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا ينفَعُهُمْ ويَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عندَ اللَّه قُلْ أَتُنَبّئُونَ اللَّهَ بمَا لا يَعْلَمُ في السَّمَوَات وَلا في الأَرْض سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وأَنذرْ به الَّذينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إلَىٰ رَبّهمْ لَيْسَ لَهُم مّن دُونه وَليٌّ وَلا شَفيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في ستَّة أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْش مَا لَكُم مّن دُونه من وَليّ وَلا شَفيع أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤]، / وقال تعالى: ﴿ وَلا يَملْكُ الَّذينَ يَدْعُونَ من دُونه الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَن شَهدَ بالْحَقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُوركُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا من دُون اللَّه شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَملْكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقلُونَ . قُل لِّلَّه الشَّفَاعَةُ جَميعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْض ثُمَّ إلَيْه تُرْجَعُونَ . وَإذَا ذُكرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ بالآخرَة وَإذَا ذُكرَ الَّذينَ من دُونه إذَا هُمْ يَسْتَبْشرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٥]، وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ للرَّحْمَن فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْسًا . يَوْمَئذ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضيَ لَهُ قَوْلا ﴾

[طه : ١٠٨ ، ١٠٩] ، وقال صاحب يس : ﴿ **وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** ﴾ [يس : ٢٢ ـ ٢٥] .

فهذه الشفاعة التى أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوَّروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك ، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها. قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا** ﴾ [نوح : ٢٣ ، ٢٤] قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكَفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، وهذا مشهور فى كتب التفسير والحديث / وغيرها كالبخارى وغيره[١] ، وهذه أبطلها النبى ﷺ وحسم مادتها وسد ذَريعتها ، حتى ١/١٥٢
لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها ، وإن كان المصلى فيها لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل على بن أبى طالب فأمره ألا يدع قبراً مُشْرفًا إلا سَوَّاه ، ولا تمثالا إلا طَمَسَه ومَحَاه ، ولعن المصورين . وعن أبى الهياج الأسدى ، قال لى على بن أبى طالب : لأبعثك على ما بعثنى رسول الله ﷺ : ألا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته[٢] . وفى لفظ : ولا صورة إلا طمستها . أخرجه مسلم[٣] .

/ فصـــل ١/١٥٣

ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور . يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين :

أحدهما : هو أصل الإيمان والإسلام ، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته .

والثانى : دعاؤه وشفاعته ، وهذا أيضًا نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين . ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب ، فإن تاب وإلا

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٢٠) ، وابن جرير فى التفسير ٢٩/ ٦٢ .

(٢) مسلم فى الجنائز (٩٦٩/ ٩٣)، وأبو داود فى الجنائز (٣٢١٨)، والترمذى فى الجنائز (١٠٤٩) وقال: « حسن »، والنسائى فى الجنائز (٢٠٣١) ، وأحمد ١/ ٩٦، ١٢٩ .

(٣) مسلم فى الجنائز (٩٦٩/ ٩٣ مكرر) .

قتل مرتدًا . ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة ، فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة .

وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضًا كافر ، لكن هذا أخفى من الأول ، فمن أنكره عن جهل عُرِّف ذلك ، فإن أصر على إنكاره فهو مرتد .

أما دعاؤه وشفاعته فى الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة .

وأما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة ـ وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ـ أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة ، وأنه يشفع فيمن يأذن الله أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر . ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون ، دون أهل / الشرك ، ولو كان المشرك محبًا له معظمًا له لم تنقذه ١/١٥٤
شفاعته من النار ، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به ، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يُقِرُّوا بالتوحيد الذى جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة أنه قال : قلت : يا رسول الله ، أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال : « أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصًا من قلبه »(١) . وعنه فى صحيح مسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبى دعوة مستجابة ، فَتَعَجَّل كل نبى دعوته ، وإنى اختبَأْتُ دعوتى شفاعة يوم القيامة ، فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا »(٢) ، وفى السنن عن عوف ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى آت من عند ربى فخيرنى بين أن يُدْخِل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة،وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»(٣) ، وفى لفظ قال : « ومن لقى الله لا يشرك به شيئًا فهو فى شفاعتى »(٤) .

وهذا الأصل ـ وهو التوحيد ـ هو أصل الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا غيره ، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ**

---

(١) البخارى فى العلم (٩٩) .

(٢) مسلم فى الإيمان (١٩٩/٣٣٨) .

(٣) الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٤١)، وابن ماجه فى الزهد (٤٣١٧) ، وأحمد ٦/٢٨ .

(٤) أحمد ٤/٤٠٤ عن أبى موسى رضى الله عنه .

وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل : ٣٦]، وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون: ٣٢] .

/ وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « بعثت بالسَّيف بين يَدَى الساعة ١/١٥٥
حتى يُعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رُمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »(١) .

والمشركون من قريش وغيرهم ـ الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبى ﷺ دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار ـ كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] ، وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] ، وقال : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ . بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤ ـ ٩١] .

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ، ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] ، / وقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ١/١٥٦
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ . أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ١ ـ ٣] ، وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . بَلِ

(١) أحمد ٢/ ٥٠ ، وقال أحمد شاكر (٥١١٤) : « إسناده صحيح » .

اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٢٨ ـ ٣٢] .

بين ـ سبحانه ـ بالمثل الذى ضربه لهم أنه لا ينبغى أن يجعل مملوكه شريكه فقال : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ [الروم : ٢٨] يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا ، فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم ؟

وهذا كما كانوا يقولون : له بنات ، فقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ [النحل: ٦٢] ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ / أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل : ٥٨ ـ ٦٠] . ١/١٥٧

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم نصفان :

قوم نوح ، وقوم إبراهيم . فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر . وكل من هؤلاء يعبدون الجن ، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا فى الحقيقة إنما يعبدون الجن ، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] .

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا فى المحيا ولا فى الممات ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم فى صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا إبراهيم ، أنا المسيح ، أنا محمد ، أنا الخضر ، أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان ، أنا على ، أنا الشيخ فلان . وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبى فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئكَ كلهم جنًا يشهد بعضهم لبعض . والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم

الفاسق ومنهم العاصى وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيخا فيتزيّا [1] فى صورته ويقول : أنا فلان . ويكون ذلك فى برية ومكان قفر[2] ، فيطعم ذلك الشخص طعامًا ويسقيه شرابًا أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة ، فيظن ذلك / الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحى فعل ذلك ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه ١/١٥٨
رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته ، وإنما يكون ذلك جنيا ، فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ [الإسراء: ٥٦ ، ٥٧] ، قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح ، فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله ، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أى نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا ، فإذا صورنا تمثاله ـ والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى فى كنائسهم ـ قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ، ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله. فيقول أحدهم : يا سيدى فلان ، أو يا سيدى جرجس ، أو بطرس، أو يا ستى الحنونة مريم ، أو يا سيدى الخليل ، أو موسى بن عمران أو غير ذلك ، اشفع لى إلى ربك .

وقد يخاطبون الميت عند قبره : سل لى ربك . أو يخاطبون الحى وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرًا حيا ، وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها : يا سيدى فلان ! أنا فى حسبك ، أنا فى جوارك ، اشفع لى إلى الله ، سل الله لنا أن ينصرنا / على عدونا ، ١/١٥٩
سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا ، وكذا ، فسل الله أن يكشف هذه الكربة . أو يقول أحدهم : سل الله أن يغفر لى .

ومنهم من يتأول قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ**

---

(١) فيتزيّا : يظهر فى هيئته. انظر : القاموس المحيط ، مادة « زيى » .

(٢) مكان قفر : الخلاء من الأرض ، لا نبات فيه ولا ماء. انظر : لسان العرب ، مادة « قفر » .

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] ، ويقولون : إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين ، فإن أحدًا منهم لم يطلب من النبى ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئًا ، ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين فى كتبهم ، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخرى الفقهاء ، وحكوا حكاية مكذوبة على مالك ـ رضى الله عنه ـ سيأتى ذكرها وبسط الكلام عليها ـ إن شاء الله تعالى .

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفى مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم ، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود فى المشركين من غير أهل الكتاب ، وفى مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم ، وفى مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم فى هذه الحال ، ونصب تماثيلهم ـ بمعنى طلب الشفاعة منهم ـ هو من الدين الذى لم يشرعه الله ، ولا ابتعث به رسولا ، ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجبا ولا مستحبا باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير / من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان . ١/١٦٠

وفيهم من ينظم القصائد فى دعاء الميت ، والاستشفاع به ، والاستغاثة ، أو يذكر ذلك فى ضمن مديح الأنبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع ، ولا واجب ، ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين ، ومن تَعَبَّدَ بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة ، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع ، بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين ، فإن الله لا يُعبد إلا بما هو واجب أو مستحب .

وكثير من الناس يذكرون فى هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح ، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأى أو الذوق ، أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك .

وجواب هؤلاء من طريقين : أحدهما : الاحتجاج بالنص والإجماع .

والثانى : القياس والذوق والاعتبار ببيان ما فى ذلك من الفساد ، فإن فساد ذلك راجح على ما يُظن فيه من المصلحة .

أما الأول فيقال : قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وبإجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب .

وعلمَ أنه لم يكن النبى ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله ، شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولا يستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم ولا فى مغيبهم ، فلا يقول أحد : يا ملائكة الله ، اشفعوا لى عند الله ، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا .

/ وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين : يا نبى الله ، يا رسول الله ، ادع ١/١٦١
الله لى ، سل الله لى ، استغفر الله لى ، سل الله أن يغفر لى أو يهدينى أو ينصرنى أو يعافينى ، ولا يقول : أشكو إليك ذنوبى أو نقص رزقى أو تسلط العدو على ، أو أشكو إليك فلانا الذى ظلمنى ، ولا يقول : أنا نزيلك ، أنا ضيفك ، أنا جارك ، أو أنت تجير من يستجير ، أو أنت خير معاذ يستعاذ به .

ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور ، ولا يكتب أحد محضرًا أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين ، كما يفعله النصارى فى كنائسهم ، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو فى مغيبهم ، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين ؛ أن النبى ﷺ لم يشرع هذا لأمته .

وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئا من ذلك ، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك ، كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا ذكر أحد من الأئمة ، لا فى مناسك الحج ولا غيرها ، أنه يستحب لأحد أن يسأل النبى ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكو إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين .

وكان أصحابه يبتلون بأنواع من البلاء بعد موته ، فتارة بالجَدْب ، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو ، وتارة بالذنوب والمعاصى ، / ولم يكن أحد منهم يأتى إلى قبر ١/١٦٢
الرسول ﷺ ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول : نشكو إليك جدب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل الله لنا أو لأستك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التى لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين .

وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهى بدعة سيئة ، وهى ضلالة باتفاق المسلمين ، ومن قال فى بعض البدع : إنها بدعة حسنة ، فإنما ذلك إذا قام دليل شرعى أنها مستحبة ، فأما ما ليس بمستحب ولا واجب ، فلا يقول أحد من المسلمين : إنها من الحسنات التى يتقرب بها إلى الله .

ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمرَ إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان ، وسبيله من سبيل الشيطان ، كما قال عبد الله بن مسعود : خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًا وخط خطوطًا عن يمينه وشماله ، ثم قال : « هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم قرأ : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** ﴾(١) [الأنعام : ١٥٣] .

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه ، ولا يخالف السنة المعلومة ، وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، باتباع من خالف السنة والإجماع القديم ، لا سيما وليس معه فى بدعته إمام من أئمة المسلمين ، ولا مجتهد يعتمد على قوله فى الدين ، ولا من / يعتبر قوله فى مسائل الإجماع والنزاع ، ١/١٦٣
فلا ينخرم الإجماع بمخالفته ، ولا يتوقف الإجماع على موافقته .

ولو قدر أنه نازع فى ذلك عالم مجتهد لكان مخصومًا بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله ، فكيف إذا كان المنازع ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعى ، وإنما اتبع من تكلم فى الدين بلا علم ، و ﴿ **يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ** ﴾ [الحج : ٨] . بل إن النبى ﷺ مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجبًا ولا مستحبًا ، فإنه قد حرَّمَ ذلك وحرَّمَ ما يفضى إليه كما حرَّمَ اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد . ففى صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبى ﷺ قال ـ قبل أن يموت بخمس ـ : « إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك »(٢) . وفى الصحيحين عن عائشة أن النبى ﷺ قال ـ قبل موته ـ : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذِّر ما فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدًا (٣) .

---

(١) الدارمى فى المقدمة ١/ ٦٧ ، وأحمد ١/ ٤٣٥، ٤٦٥ ، وقال أحمد شاكر (٤١٤٢) : « إسناده صحيح » .
(٢) مسلم فى المساجد (٥٣٢/ ٢٣) .
(٣) البخارى فى الجنائز (١٣٣٠) ، (١٣٦٠) ، ومسلم فى المساجد (٥٢٩/ ١٩) .

واتخاذ المكان مسجدًا ، هو أن يتخذ للصلوات الخمس ، وغيرها كما تبنى المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجدًا إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين .

فحرم ﷺ أن تُتَّخَذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد ، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ؛ لأن ذلك / ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل ١/١٦٤
صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله .

والفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه ، كما نهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة لما فى ذلك من المفسدة الراجحة ، وهو التشبه بالمشركين الذى يفضى إلى الشرك . وليس فى قصد الصلاة فى تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع فى غير ذلك من الأوقات .

ولهذا تنازع العلماء فى ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم فى هذه الأوقات ، وهو أظهر قولى العلماء ؛ لأن النهى إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه فى هذه الأوقات ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها ، فأبيحت لما فيها من المصلحة الراجحة ، بخلاف ما لا سبب له فإنه يمكن فعله فى غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهى عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهى عنه .

فإذا كان نهيه عن الصلاة فى هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها ـ كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها ـ كان معلومًا أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم فى نفسه ، أعظم تحريمًا من الصلاة التى نهى عنها لئلا يفضى إلى دعاء الكواكب .

كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ـ فنهى عن / قصدها للصلاة ١/١٦٥
عندها لئلا يفضى ذلك إلى دعائهم والسجود لهم ـ كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد .

ولهذا ؛ كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين : زيارة شرعية ، وزيارة بدعية .

فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت ، كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له . فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه ، قال الله تعالى فى المنافقين : ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ** ﴾ [التوبة: ٨٤] ، فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون . فلما نهى

عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهى الكفر ، دل ذلك على انتفاء هذا النهى عند انتفاء هذه العلة . ودل تخصيصهم بالنهى على أن غيرهم يُصلى عليه ويُقام على قبره ؛ إذ لو كان هذا غير مشروع فى حق أحد لم يخصوا بالنهى ولم يعلل ذلك بكفرهم ؛ ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ، فكان النبى ﷺ يصلى على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته ، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول : « سلوا له التثبيت ؛ فإنه الآن يُسأل » . رواه أبو داود وغيره[1] .

وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحُد ، ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون »[2] ، « ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين »[3] ، « نسأل الله لنا ولكم العافية »[4] ، « اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم »[5] . وفى صحيح / مسلم ١/١٦٦
عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »[6] . والأحاديث فى ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم .

وهذه غير الزيارة المشتركة التى تجوز فى قبور الكفار كما ثبت فى صحيح مسلم وأبى داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة أنه قال : أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : « استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى ، فزوروا القبور ، فإنها تذكركم الآخرة »[7] فهذه الزيارة التى تنفع فى تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافرًا ، بخلاف الزيارة التى يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا فى حق المؤمنين .

وأما الزيارة البدعية فهى التى يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج ، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة ، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء ،

---

(١) أبو داود فى الجنائز (٣٢٢١) عن عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٢) مسلم فى الجنائز (٩٧٥/١٠٤) ، وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣٧) ، وابن ماجه فى الجنائز (١٥٤٧) ، وأحمد ٢/ ٣٠٠ ، ٣٧٥ ، ٤٠٨ .

(٣) مسلم فى الجنائز (٩٧٤/١٠٣) ، والنسائى فى الجنائز (٢٠٣٧) ، وأحمد ٦/ ٢٢١ .

(٤) مسلم فى الجنائز (٩٧٥/١٠٤) ، والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٠) ، وابن ماجه فى الجنائز (١٥٤٧) ، وأحمد ٥/ ٣٥٣ ، ٣٦٠ .

(٥) ابن ماجه فى الجنائز (١٥٤٦) ، وأحمد ٦/ ٧١، ٧٦، ١١١، وضعفه الألبانى .

(٦) مسلم فى الطهارة (٢٤٩/٣٩) ، وأحمد ٢/ ٣٧٥ .

(٧) مسلم فى الجنائز (٩٧٦/١٠٨) .

فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبى ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبى ﷺ ولا عند غيره ، وهى من جنس الشرك وأسباب الشرك .

ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم، مثل أن يتخذ قبورهم مساجد ، لكان ذلك محرمًا منهيًا عنه ، ولكان صاحبه متعرضًا لغضب الله ولعنته ، كما قال النبى ﷺ : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(١) ،وقال : « قَاتَلَ الله اليَهُودَ والنَّصَارى اتخَذُوا قُبُورَ أَنْبيَائهم مَسَاجِدَ »(٢) يُحَذِّر ما صنعوا . وقال : « إن من كانَ قَبْلكم كَانُوا / يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ أَلا فَلا ١/١٦٧
تَتخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّى أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ »(٣) .

فإذا كان هذا محرما ، وهو سبب لسخط الرب ولعنته ، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه ، واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ، ونيل الطلبات وقضاء الحاجات ؟! وهذا كان أول أسباب الشرك فى قوم نوح وعبادة الأوثان فى الناس ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم .

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره فى صحيح البخارى وفى كتب التفسير وقصص الأنبياء فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح : ٢٣] أن هؤلاء كانوا قومًا صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكَفُوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، قال ابن عباس : ثم صارت هذه الأوثان فى قبائل العرب .

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئًا آخر ذكروه فى زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه كصاحب الكتب المضنون بها وغيره ، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم ، فإنهم لا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ولا أنه يعلم الجزئيات ، ويسمع أصوات عباده ، ويجيب دعاءهم .

فشفاعة الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من أنها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه ، كما أن ما يكون من إنزال المطر باستسقائهم

---

(١) مالك فى قصر الصلاة فى السفر ١/ ١٧٢ (٨٥) ، وقال ابن عبد البر : « لا خلاف عن مالك فى إرسال هذا الحديث » .

(٢) البخارى فى الصلاة (٤٣٧) ، ومسلم فى المساجد (٥٣٠/ ٢٠) ، وأبو داود فى الجنائز (٣٢٢٧) ، والنسائى فى الكبرى فى الوفاة (٩٢٠٧/ ٥) ، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) مسلم فى المساجد (٥٣٢/ ٢٣) .

ليس سببه عندهم إجابة دعائهم .

١/١٦٨ بل هم يزعمون أن المؤثر فى حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات / الفلكية أو القوى الطبيعية ، فيقولون : إن الإنسان إذا أحب رجلا صالحا قد مات ، لا سيما إن زار قبره ، فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشىء من ذلك ـ بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك ـ ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة ، وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم . وفى هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره .

ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بنى آدم ، وجعل القبور أوثانا هو أول الشرك ؛ ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ؛ ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه ، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم ، وإنما هو شيطان ، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعى أحدهم أنه النبى فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً فى ذلك .

وفى هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهى كثيرة جداً ، والجاهل يظن أن ذلك الذى رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبى أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور :

١/١٦٩ / أحدها : أن يقرأ آية الكرسى بصدق ، فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ فى الأرض أو احتجب ، ولو كان رجلا صالحاً أو ملكا أو جنياً مؤمنا لم تضره آية الكرسى وإنما تضر الشياطين ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة لما قال له الجنى : اقرأ آية الكرسى إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى ﷺ : « صَدَقَك وهو كَذُوب »(١) .

---

(١) البخارى فى الوكالة (٢٣١١) وفى بدء الخلق (٤٢٧٥) ، والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (٤/١٠٧٩٥).

ومنها : أن يستعيذ بالله من الشياطين .

ومنها : أن يستعيذ بالعوذ الشرعية ، فإن الشياطين كانت تعرض للأنبياء فى حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم ، كما جاءت الجن إلى النبى ﷺ بشعلة من النار ، تريد أن تحرقه ، فأتاه جبريل بالعوذة المعروفة التى تضمنها الحديث المروى عن أبى التَّيَّاح أنه قال: سأل رجل عبد الرحمن بن حُبَيْش ، وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبى ﷺ : كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدَّرت عليه من الشِّعاب والأوْدية ، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ ، قال : فرعب رسول الله ﷺ فأتاه جبريل عليه السلام فقال: « يا محمد، قل، قال: ما أقول ؟ قال: قل : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق ، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن »(١) قال : فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل .

/ وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن عفريتًا من ١/١٧٠
الجن جاء يفتك بى البارحة ليقطع علىَّ صلاتى ، فأمكننى الله ـ عز وجل ـ منه فَذَعَتُّه (٢) فأردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه ، ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام: ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي** ﴾ [ص : ٣٥]، فرده الله تعالى خاسئاً »(٣) .

وعن عائشة : أن النبى ﷺ كان يصلى ، فأتاه الشيطان فأخذه ﷺ فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ : « حتى وجدت بَرْدَ لسانه على يدى ، ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقًا حتى يراه الناس » أخرجه النسائى(٤) ، وإسناده على شرط البخارى كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسى فى مختاره الذى هو خير من صحيح الحاكم . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ كان يصلى صلاة الصبح وهو خلفه، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتمونى وإبليس ، فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعَابِه

---

(١) أحمد ٣/٤١٩ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٣٠ : « رجال أحد إسنادى أحمد رجال الصحيح » .

(٢) أى خنقته. انظر : النهاية فى غريب الحديث ٢/ ١٦٠ .

(٣) البخارى فى الصلاة (٤٦١) ، ومسلم فى المساجد (٣٩/٥٤١) .

(٤) النسائى فى الكبرى فى السهو (١/٥٥٠ ، ٢/٥٥١) بلفظ مختلف عن أبى هريرة رضى الله عنه .

بين إصبعى هاتين ـ الإبهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » رواه الإمام أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه(١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى الدرداء أنه قال : قام رسول الله ﷺ يصلى فسمعناه يقول: « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من صلاته قلنا : « يا رسول الله ، سمعناك تقول شيئاً فى الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك . قال : « إن عدو الله / إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فاستأخر ، ثم أردت أن آخذه ولولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة »(٢) . ١/١٧١

فإذا كانت الشياطين تأتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم ، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد ، فكيف من هو دون الأنبياء ؟

فالنبى ﷺ قَمَعَ شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ، ومن أعظمها الصلاة والجهاد . وأكثر أحاديث النبى ﷺ فى الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله ـ سبحانه ـ بما نصر به الأنبياء .

وأما من ابتدع دينا لم يشرعوه ، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته ، وابتدع الغلو فى الأنبياء والصالحين والشرك بهم ، فإن هذا تتلعَّب به الشياطين ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ [النحل: ٩٩ ، ١٠٠] ، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٢] .

ومنها : أن يدعو الرائى بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال .

ومنها : أن يقول لذلك الشخص : أأنت فلان ؟ ويقسم عليه بالأقسام المعظمة ،

---

(١) أحمد ٣/ ٨٢ ، ٨٣ ، وأبو داود فى الصلاة (٦٩٩) .

(٢) مسلم فى المساجد (٥٤٢/ ٤٠) .

ويقرأ عليه قوارع القرآن إلى غير ذلك من الأسباب التى تضر الشياطين .

١/١٧٢ وهذا كما أن كثيرا من العباد يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشاً عظيماً / وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن أن تلك الصورة هى الله ـ تعالى وتقدس ـ ويكون ذلك شيطانا .

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس ، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر فى حكايته المشهورة حيث قال : كنت مرة فى العبادة فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور ، فقال لى : يا عبد القادر ، أنا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك . قال : فقلت له : أنت الله الذى لا إله إلا هو ؟ اخسأ يا عدو الله . قال : فتمزق ذلك النور وصار ظلمة ، وقال : يا عبد القادر ، نجوت منى بفقهك فى دينك وعلمك وبمنازلاتك فى أحوالك . لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلاً . فقيل له : كيف علمت أنه الشيطان ؟ قال : بقوله لى : « حللت لك ما حرمت على غيرك » ، وقد علمت أن شريعة محمد ﷺ لا تنسخ ولا تبدل ، ولأنه قال : أنا ربك ، ولم يقدر أن يقول : أنا الله الذى لا إله إلا أنا .

ومن هؤلاء من اعتقد المرئى هو الله ، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى فى اليقظة ومستندهم ما شاهدوه ، وهم صادقون فيما يخبرون به ، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان .

وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد ، يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه فى الدنيا ؛ لأن كثيراً منهم رأى ما ظن أنه الله وإنما هو شيطان . وكثير منهم رأى من ظن أنه نبى أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطاناً . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من رآنى فى / المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى »[1] . فهذا ١/١٧٣ فى رؤية المنام ؛ لأن الرؤية فى المنام تكون حقا وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به فى المنام ، وأما فى اليقظة فلا يراه أحد بعينه فى الدنيا .

فمن ظن أن المرئى هو الميت فإنما أتى من جهله ، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

---

(١) البخارى فى العلم (١١٠) ، ومسلم فى الرؤيا (٢٢٦٦/ ١٠) ، والترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى تعبير الرؤيا (٣٩٠١) ، وأحمد ٢/ ٢٣٢ ، ٤١١ كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وبعض من رأى هذا ـ أو صدق من قال : إنه رآه ـ اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين فى حالة واحدة فخالف صريح المعقول .

ومنهم من يقول : هذه رقيقة ذلك المرئى أو هذه روحانيته أو هذا معناه تشكل ، ولا يعرفون أنه جنى تصور بصورته .

ومنهم من يظن أنه ملك ، والملك يتميز عن الجنى بأمور كثيرة ، والجن فيهم الكفار والفُساق والجُهَّال ، وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد ﷺ تسليما ، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة . وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تتنزل على أحدهم روح يقول : هى روحانية الكواكب ، ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان . فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكاشف بها . وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك .

/ وتارة يجلبون له من يريده من الإنس . ١/١٧٤

وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً .

وتارة يحملونه فى الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد . فمنهم من يذهبون به إلى مكة عَشِيَّة عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة ، مع أنه لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبَّى ، ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال .

ومنهم من يذهب إلى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية ، فلا يحرم إذا حاذى الميقات . ومعلوم أن من أراد نسكاً بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلا محرماً ، ولو قصدها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأموراً أيضاً بالإحرام من الميقات ، وهل ذلك واجب أو مستحب ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا باب واسع .

ومنه السحر والكهانة ، وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع . وعند المشركين عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة فى ذلك من الحكايات ما يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبياً كان أو غير نبى إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ؛ كما أن الذين يدعونهم فى مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون فى صورتهم ، أو يظنون أنه فى صورتهم ويقول : أنا فلان ويكلمهم ويقضى بعض حوائجهم ، فإنهم يظنون أن الميت المستغاث به هو الذى كلمهم وقضى مطلوبهم ، وإنما هو من الجن والشياطين .

/ ومنهم من يقول : هو ملك من الملائكة ، والملائكة لا تعين المشركين وإنما هم ١/١٧٥
شياطين أضلوهم عن سبيل الله .

وفى مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التى يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه .

وأهل الجاهلية فيها نوعان : نوع يكذب بذلك كله ، ونوع يعتقد ذلك كرامات لأولياء الله .

فالأول يقول : إنما هذا خيال فى أنفسهم لا حقيقة له فى الخارج ، فإذا قالوا ذلك لجماعة بعد جماعة ، فمن رأى ذلك وعاينه موجودا أو تواتر عنده ذلك عمن رآه موجوداً فى الخارج وأخبره به من لا يرتاب فى صدقه ، كان هذا من أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك ، والعارفين به بالأخبار الصادقة .

ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك ، خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا أنه من أولياء الله ، مع كونهم يعلمون أنه لا يؤدى فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس ، ولا يجتنب محارم الله ؛ لا الفواحش ولا الظلم ، بل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التى وصف الله بها أولياءه فى قوله تعالى : ﴿ **ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] .

فيرون من هو من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى له من المكاشفات / والتصرفات ١/١٧٦
الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء الله المتقين .

فمنهم من يرتد عن الإسلام وينقلب على عقبيه ، ويعتقد فيمن لا يصلى ، بل ولا يؤمن بالرسل ، بل يسب الرسل ، ويتنقص بهم أنه من أعظم أولياء الله المتقين .

ومنهم من يبقى حائراً متردداً شاكاً مرتاباً يقدم إلى الكفر رِجْلا وإلى الإسلام أخرى ، وربما كان إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان .

وسبب ذلك : أنهم استدلوا على الولاية بما لا يدل عليها ، فإن الكفار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلك . قال تعالى : ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] .

وهؤلاء لابد أن يكون فيهم كذب وفيهم مخالفة للشرع ، ففيهم من الإثم والإفك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذى بعث به نبيه ﷺ . وتلك الأحوال الشيطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم ، وهى دلالة وعلامة على ذلك .

والجاهل الضال يظن أنها نتيجة إيمانهم وولايتهم لله تعالى ، وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم لله سبحانه ، وذلك أنه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قد تكلمنا على ذلك فى مسألة (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ، ولم يعلم أن هذه الأحوال التى جعلها دليلا على الولاية تكون للكفار ـ من المشركين وأهل الكتاب ـ أعظم مما تكون للمنتسبين إلى الإسلام ، والدليل مستلزم للمدلول مختص به لا
١/١٧٧ يوجد بدون مدلوله ، فإذا / وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للإيمان فضلا عن الولاية ، ولا كانت مختصة بذلك ، فامتنع أن تكون دليلا عليه .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم ، لا ثمرة الشرك والبدعة والفسق .

وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو لحاجة للمسلمين .

والمقتصدون قد يستعملونها فى المباحات .

وأما من استعان بها فى المعاصى فهو ظالم لنفسه ، مُتَعَدٍّ حد ربه ، وإن كان سببها الإيمان والتقوى . فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها فى طاعة الشيطان ، فهذا المال ، وإن ناله بسبب عمل صالح ، فإذا أنفقه فى طاعة الشيطان كان وبالا عليه ، فكيف إذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهى تدعو إلى كفر آخر وفسوق وعصيان ؟!

ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسلام . ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعونه عند الأوثان كإخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فإذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهى عانقه أو كلمه ، ظن أن ذلك هو النبى المقبور ، أو الشيخ المقبور ،
١/١٧٨ والقبر لم ينشق ، وإنما الشيطان مثّل له ذلك ، / كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ويكون هو الشيطان تمثل له فى صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذى رآه قد خرج من القبر : نحن لا نبقى فى قبورنا ، بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشى بين الناس . ومنهم من يرى ذلك الميت فى الجنازة يمشى ويأخذ بيده ، إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها .

وأهل الضلال إما أن يكذبوا بها وإما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن

ذلك الشخص هو نفس النبى أو الرجل الصالح أو ملك على صورته ، وربما قالوا : هذه روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت ، حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص فى مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون فى الساعة الواحدة فى مكانين ، ولا يعلم أن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الإنسى .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وغير قبورهم ، هم من المشركين الذين يدعون غير الله ، كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ / كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ** ١/١٧٩ **أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً** ﴾ [الإسراء: ٥٦ ، ٥٧]، وقال تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] . ومثل هذا كثير فى القرآن : ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ، فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك ، بخلاف ما يطلب من أحدهم فى حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضى إلى ذلك ، فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد فى حياته بحضرته ، فإنه ينهى من يفعل ذلك ، بخلاف دعائهم بعد موتهم ، فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم فى مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك .

فمن رأى نبياً أو ملكاً من الملائكة وقال له : « ادع لى » لم يفض ذلك إلى الشرك به، بخلاف من دعاه فى مغيبه ، فإن ذلك يفضى إلى الشرك به كما قد وقع ، فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك إلى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك ، كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين .

ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ /لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ** ١/١٨٠ **رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ**

الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ ـ ٩] ، وقال تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الشورى : ٥ ، ٦] .

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد ، وكذلك ما روى أن النبى ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أمته هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد .

وإذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين ، ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون ، لوجهين :

أحدهما : أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم ، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم فلا فائدة فى الطلب منهم .

الثانى : أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم فى هذه الحال يفضى إلى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة . فلو قدِّر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة ، فكيف ولا مصلحة فيه، بخلاف الطلب منهم فى حياتهم وحضورهم فإنه لا مفسدة / فيه ، فإنهم ينهون عن ١/١٨١
الشرك بهم ، بل فيه منفعة ، وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فإنهم فى دار العمل والتكليف ، وشفاعتهم فى الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التى لا يجب عليهم فعلها ليس واجباً على السائل ولا مستحباً ، بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه والتوكل عليه . وسؤال الخلق فى الأصل محرم، لكنه أبيح للضرورة ، وتركه توكلاً على الله أفضل ، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨] أى ارغب إلى الله لا إلى غيره ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة : ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول لقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] ، فأمرهم بإرضاء الله ورسوله .

وأما فى الحسب فأمرهم أن يقولوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ لا يقولوا : حسبنا الله ورسوله.

ويقولوا : ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة : ٥٩] لم يأمرهم أن يقولوا : إنا لله ورسوله راغبون ، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] ، فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده .

وقد قال النبى ﷺ لابن عباس : « يا غلام ، إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جَفَّ القلم بما / أنت لاق ، فلو جهدت الخليقة ١/١٨٢
على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً »(١) ، وهذا الحديث معروف مشهور ، ولكن قد يروى مختصراً .

وقوله : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » هو من أصح ما روى عنه . وفى المسند لأحمد : أن أبا بكر الصديق كان يسقط السَّوط من يده فلا يقول لأحد : ناولنى إياه ، ويقول : إن خليلى أمرنى ألا أسأل الناس شيئا (٢) . وفى صحيح مسلم عن عوف بن مالك أن النبى ﷺ بايع طائفة من أصحابه وأسرّ إليهم كلمة خفية : « ألا تسألوا الناس شيئا » . قال عوف : فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد : ناولنى إياه (٣) .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفاً بغير حساب»، وقال: « هم الذين لا يَسْتَرقُونَ وَلا يَكْتَوُونَ ولا يَتَطَيَّرونَ وعلى ربهم يتوكلون»(٤) فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أى لا يطلبون من أحد أن يرقيهم . والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك .

وقد روى فيه : « ولا يرقون » وهو غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبى ﷺ يرقى نفسه وغيره ولم يكن يسترقى ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به ، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك فى قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم .

---

(١) أحمد ١/٣٠٧ ، وقال أحمد شاكر (٢٨٠٤) : « رواه أحمد عن شيخه عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد أحدها صحيح . . . » .

(٢) أحمد ١/١١ ، وقال أحمد شاكر (٦٥) : « إسناده ضعيف لانقطاعه » .

(٣، ٤) سبق تخريجهما ص ٦١ .

١/١٨٣ / وما يروى أن الخليل لما ألقى فى المنجنيق قال له جبريل : سل ، قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » ليس له إسناد معروف وهو باطل ، بل الذى ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «حسبى الله ونعم الوكيل» . قال ابن عباس: قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد حين : ﴿ **قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، وقد روى أن جبريل قال : هل لك من حاجة ؟ قال : « أما إليك فلا » وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره (١) .

وأما سؤال الخليل لربه ـ عز وجل ـ فهذا مذكور فى القرآن فى غير موضع ، فكيف يقول : حسبى من سؤالى علمه بحالى ، والله بكل شىء عليم ، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه ؛ لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين ، وإجابة السائلين . وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هى عليه ، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافى أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التى تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التى بها ينال كرامته .

ولكن العبد قد يكون مأموراً فى بعض الأوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روى فى الحديث : « من شَغَلَهُ ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »(٢) ، وفى الترمذى عن النبى ﷺ أنه قال : « من شَغَلَهُ قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » قال الترمذى : حديث حسن غريب(٣) .

١/١٨٤ وأفضل العبادات البدنية الصلاة ، وفيها القراءة والذكر والدعاء ، وكل / واحد فى موطنه مأمور به ، ففى القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن ، وفى الركوع والسجود ينهى عن قراءة القرآن ويؤمر بالتسبيح والذكر ، وفى آخرها يؤمر بالدعاء ، كما كان النبى ﷺ يدعو فى آخر الصلاة ويأمر بذلك . والدعاء فى السجود حسن مأمور به ، ويجوز الدعاء فى القيام أيضاً وفى الركوع ، وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل ، فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور به .

وقد سأل الخليل وغيره ، قال تعالى عنه : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٦٣ ، ٤٥٦٤) ، ولم نعثر عليه فى أحمد .

(٢) البيهقى فى الشعب (٥٧٢) وقال : هكذا رواه البخارى عن ضرار عن صفوان فى التاريخ ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ٣/ ١٦٥ وقال : قال ابن حبان : هذا موضوع ما رواه إلا صفوان بهذا الإسناد عن عطية عن أبى سعيد. قال : فأما صفوان فيروى عن الأثبات ما لا أصل له من حديث الثقات ، ولا يجوز الاحتجاج بما انفرد به. قال : وأما عطية فلا يحل كتب حديثه إلا على التعجب .

(٣) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٦) ، والدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٤١ .

عند بيتك المُحرَّم ربَّنا ليُقيموا الصَّلاة فاجْعَلْ أفْئدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إليْهِمْ وارْزُقْهُم مِنَ الثَّمرات لعلَّهُمْ يشْكُرُونَ . ربَّنا إنَّك تعْلَمُ ما نُخْفي وما نُعْلنُ وما يَخْفىٰ على اللَّه من شيْءٍ في الأرْضِ ولا في السَّماء . الْحَمْدُ للَّه الَّذي وَهبَ لي على الْكبرِ إسْمَاعيلَ وإسْحاقَ إنَّ ربِّي لَسَميعُ الدُّعَاء . ربِّ اجْعلْني مُقيمَ الصَّلاة ومن ذُرِّيَّتي ربَّنا وتَقبَّلْ دُعَاء . ربَّنا اغْفرْ لي ولوالدَيَّ وَلِلْمُؤْمنينَ يومَ يَقُومُ الْحسَاب ﴾ [إبراهيم: ٣٧ ـ ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ وَإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ الْقَواعدَ منَ الْبَيْت وَإسْمَاعيلُ ربَّنا تَقبَّلْ منَّا إنَّكَ أنتَ السَّميعُ الْعَليمُ . ربَّنا واجْعَلْنَا مُسْلمَيْن لكَ ومن ذُرِّيَّتنَا أُمَّةً مُسْلمَةً لَكَ وأَرنا مَناسكنَا وتُبْ علَيْنَا إنَّكَ أنت التَّوَّابُ الرَّحيمُ . ربَّنا وابْعَثْ فيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتكَ وَيُعلِّمُهُمُ الْكتابَ وَالْحكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إنَّكَ أنتَ الْعَزيزُ الْحكيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩] .

وكذلك دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به ،وقد ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من رجل يدعو/ لأخيه بظهر الغيب إلا وكل الله به ملكاً كلما دعا ١/١٨٥
لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله »[1] أى بمثل ما دعوت لأخيك به.

وأما سؤال المخلوقِ المخلوقَ أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به ، بخلاف سؤال العلم ، فإن الله أمر بسؤال العلم كما فى قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَإن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ من قَبْلِكَ ﴾ [يونس : ٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، وهذا لأن العلم يجب بذله ، فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وهو يزكو على التعليم ، لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل ، ولهذا يُشبه بالمصباح.

وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة ، لصاحبها أن يسألها ممن هى عنده ، وكذلك مال الفىء وغيره من الأموال المشتركة التى يتولى قسمتها ولىُّ الأمر ، للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية ؛ لأن المستولى يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه .

ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه ، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه ، كما استطعم موسى والخضر أهل القرية . وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه . وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه؛ / فالبائع يسأل الثمن، والمشترى ١/١٨٦

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠١ .

يسأل المبيع . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [النساء : ١] .

ومن السؤال ما لا يكون مأمورا به ، والمسؤول مأمور بإجابة السائل ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج : ٣٦] ، ومنه الحديث : « إن أحدكم ليسألنى المسألة فيخرج بها يتأبطها ناراً »(١) ، وقوله : « اقطعوا عنى لسان هذا »(٢) .

وقد يكون السؤال منهياً عنه نهى تحريم أو تنزيه ، وإن كان المسؤول مأمورا بإجابة سؤاله ، فالنبى ﷺ كان من كماله أن يعطى السائل ، وهذا فى حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس سؤال السائل منهياً عنه . ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئاً من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين ، كما أشار عليه عمر فى بعض مغازيه لما استأذنوه فى نحر بعض ظهرهم ، فقال عمر : يا رسول الله ، كيف بنا إذا لقينا العدو غدًا رجالا جياعًا ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ، ثم تدعو الله بالبركة ، فإن الله يبارك لنا فى دعوتك . وفى رواية : فإن الله سيغيثنا بدعائك . وإنما كان سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره (٣) ، وكما سألته أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس (٤) ، وكما سأله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحببه وأمه إلى عباده المؤمنين ، ونحو ذلك .

١/١٨٧ وأما الصديق فقد قال الله فيه وفى مثله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ /يَتَزَكَّى . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل : ١٧ - ٢١] ، وقد ثبت فى الصحاح عنه أنه قال ﷺ : « إن أمَنَّ الناس علينا فى صحبته

---

(١) أحمد ٣/ ١٦ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ٩٧ : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٢) ذكره العراقى فى تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ١٣٦ وقال : « ليس فى شىء من الكتب المشهورة » ، والعجلونى فى كشف الخفاء (٤٨٤) .

(٣) الطبرانى فى الكبير ١٩/ ٨ ، وأبو يعلى (١٥٤٩) وذكره الهيثمى فى المجمع ٨/ ٣٠٠ وقال : « رواه الطبرانى وأبو يعلى وفى إسناد الطبرانى من لم أعرفهم ، وفى إسناد أبى يعلى يحيى بن عبد الحميد الحمانى وهو ضعيف»، وأبو نعيم فى الدلائل ص ٤١٨ .

(٤) البخارى فى الدعوات (٦٣٣٤)، (٦٣٧٩) ، (٦٣٨١) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٠/ ١٤١) ، (٢٤٨١) .

وذات يده أبو بكر ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا »[1] فلم يكن فى الصحابة أعظم منّة من الصديق فى نفسه وماله .

وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، لا يطلب جزاء من مخلوق ، فقال تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ [الليل : ١٧ ـ ٢١]، فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى ، فإنه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد ، والنبى ﷺ كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم ، وتلك النعمة لا تجزى ، فإن أجر الرسول فيها على الله ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠] .

وأما على وزيد وغيرهما ، فإن النبى ﷺ كان له عندهم نعمة تجزى ، فإن زيدًا كان مولاه فأعتقه، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وعلىّ كان فى عيال النبى ﷺ لجدب أصاب أهل مكة ، فأراد النبى ﷺ والعباس التخفيف عن أبى طالب من عياله ، فأخذ النبى ﷺ علياً إلى عياله ، وأخذ العباس جعفراً إلى عياله ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن الصديق كان أمنَّ الناس فى صحبته وذات يده لأفضل / الخلق رسول ١/١٨٨
الله ﷺ ؛ لكونه كان ينفق ماله فى سبيل الله كاشترائه المعذبين . ولم يكن النبى ﷺ محتاجاً فى خاصة نفسه لا إلى أبى بكر ولا غيره ، بل لما قال له فى سفر الهجرة : إن عندى راحلتين فخذ إحداهما ، فقال النبى ﷺ : « بالثمن »[2] فهو أفضل صديق لأفضل نبى ، وكان من كماله أنه لا يعمل ما يعمله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، لا يطلب جزاء من أحد من الخلق ، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم .

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء ، قال تعالى عمن أثنى عليهم : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان: ٩]، والدعاء جزاء كما فى الحديث: « من أسدى

---

(١) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٥٤) ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨٢) كلاهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) الطبرانى فى الكبير ١٠٦/٢٤ (٢٨٤) ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥٦/٦ وقال : « رواه الطبرانى وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه »[1] . وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول : اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويبقى أجرنا على الله .

وقال بعض السلف : إذا قال لك السائل : بارك الله فيك ، فقل : وفيك بارك الله، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلاً صالحاً أو ملكاً من الملوك أو غنيا من الأغنياء ، فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك خالصاً لله يبتغى به وجه الله ، لا يطلب به من المخلوق جزاءً ولا دعاءً ولا غيره ، لا من نبى ولا رجل صالح ولا من الملائكة ، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين .

١/١٨٩ وهذا هو دين الإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، / فلا يقبل من أحد ديناً غيره ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكان نوح وإبراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على الإسلام ، قال نوح : ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس : ٧٢]، وقال عن إبراهيم : ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ١٣٢]، وقال موسى: ﴿**يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾ [يونس: ٨٤] ، وقالت السَّحَرَةُ : ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٦] ، وقال يوسف : ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا** ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وقال عن الحواريين : ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾ [المائدة : ١١١] .

ودين الإسلام مبنى على أصلين : أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأن نعبده بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل ، أمر إيجاب أو أمر استحباب ، فيعبد فى كل زمان بما أمر به فى ذلك الزمان . فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين ، وكذلك شريعة الإنجيل .

---

(١) أبو داود فى الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائى فى الزكاة (٢٥٦٧) ، وأحمد ٢/ ٦٨ ، ٩٦ ، ٩٩ كلهم عن عبد الله ابن عمر ، رضى الله عنهما .

وكذلك فى أول الإسلام لما كان النبى ﷺ يصلى إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام ، ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام ، والعدول عنها إلى الصخرة خروجاً عن دين / الإسلام . فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد ﷺ بما ١/١٩٠
شرعه الله ، من واجب ومستحب ، فليس بمسلم .

ولابد فى جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ . وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة : ٤ ، ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر : ١ ـ ٣] .

فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة ، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال ، هو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين ، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء : لا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء ، لا دعاء ولا غيره .

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب إلا فى بعض المواضع ، ويكون المسؤول مأموراً بالإعطاء قبل السؤال ، وإذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ ، فإنه أجل قدراً وأغنى بالله عن غيره ، فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد :

مفسدة الافتقار إلى غير الله ، وهى من نوع الشرك .

ومفسدة إيذاء المسؤول وهى من نوع ظلم الخلق .

/ وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس . فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة ، وقد ١/١٩١
نزه الله رسوله عن ذلك كله .

وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعون به ، كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات ، وإن كان هو ينتفع بدعائهم له فهو أيضا ينتفع بما يأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة ، فإنه ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء»(١)، ومحمد ﷺ هو

(١) مسلم فى العلم (١٦/٢٦٧٤) ،وأبو داود فى السنة (٤٦٠٩) ،والترمذى فى العلم (٢٦٧٤) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى المقدمة (٢٠٦) ،وأحمد ٢/ ٣٨٠ كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

الداعى إلى ما تفعله أمته من الخيرات ، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

ولهذا لم تجرِ عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال ؛ لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيء . وليس كذلك الأبوان ، فإنه ليس كل ما يفعله الولد يكون للوالد مثل أجره ، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب ، كما قال فى الحديث الصحيح : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له »[1] . فالنبى ﷺ ـ فيما يطلبه من أمته من الدعاء ـ طلبه طلب أمر وترغيب ، ليس بطلب سؤال . فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه، فهذا أمر الله به فى القرآن بقوله: ﴿ **صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ، . والأحاديث عنه فى الصلاة والسلام معروفة . / ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة ١/١٩٢
والفضيلة والمقام المحمود ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىَّ ، فإنه من صلى علىَّ مرة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة »[2]، وفى صحيح البخارى عن جابر، عن النبى ﷺ ؛ أنه قال: « من قال حين سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد . حلت له شفاعتى يوم القيامة »[3] ، فقد رغب المسلمين فى أن يسألوا الله له الوسيلة ، وبيَّن أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً ، فإن الجزاء من جنس العمل .

ومن هذا الباب الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه أن عمر بن الخطاب استأذن النبى ﷺ فى العمرة فأذن له ثم قال : « لا تنسنا يا أخى من دعائك »[4] ، فطلب النبى ﷺ من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلى عليه ، ويسلم عليه ، وأن يسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة ، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات ،

---

(١) مسلم فى الوصية (١٦٣١/ ١٤) ، وأبو داود فى الوصايا (٢٨٨٠) ، والترمذى فى الأحكام (١٣٧٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى الوصايا (٣٦٥١) ، وأحمد ٢/ ٣٧٢ ، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) مسلم فى الصلاة (٣٨٤/ ١١) .

(٣) البخارى فى الأذان (٦١٤) .

(٤) سبق تخريجه ص ٦٢ .

فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان إليه . وهو ﷺ أيضاً ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم به، وينتفع أيضاً بالخير الذى يفعلونه من الأعمال الصالحة ومن دعائهم له .

/ ومن هذا الباب قول القائل : إنى أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟ ١/١٩٣
قال : « ما شئت » قال : الربع ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : النصف ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : الثلثين ؟ قال : « ما شئت، وإن زدت فهو خير لك » قال : أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال : « إذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك » رواه أحمد فى مسنده والترمذى وغيرهما(١) .

وقد بسط الكلام عليه فى (جواب المسائل البغدادية) . فإن هذا كان له دعاء يدعو به، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبى ﷺ كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ، فإنه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة: « آمين ، ولك بمثله » فدعاؤه للنبى ﷺ أولى بذلك .

ومن قال لغيره من الناس : ادع لى ـ أو لنا ـ وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضا بأمره ، ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير ، فهو مقتد بالنبى ﷺ ، مؤتم به ، ليس هذا من السؤال المرجوح .

وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه ، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به فى ذلك ، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذى تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله . وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع .

/ وأما سؤال الميت فليس بمشروع، لا واجب ولا مستحب ، بل ولا مباح ، ولم يفعل ١/١٩٤
هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة؛ لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة ، والشريعة إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة ، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة ، بل إما أن يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة ، وكلاهما غير مشروع .

فقد تبين أن ما فعله النبى ﷺ من طلب الدعاء من غيره ، هو من باب الإحسان إلى الناس ، الذى هو واجب أو مستحب .

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأحمد ٥/١٣٦ .

وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز ، ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم ، هو من باب الإحسان إلى الموتى الذى هو واجب أو مستحب ، فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة ، فالصلاة حق الحق فى الدنيا والآخرة ، والزكاة حق الخلق ، فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده ، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئا .

ومن عبادته الإحسان إلى الناس ، حيث أمرهم الله سبحانه به ، كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين ، فاستحوذ الشيطان على أتباعه ، فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق ، فإنهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد الصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين ، مؤذين ظالمين لمن يسألونه ، وكانوا ظالمين لأنفسهم . فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة .

١/١٩٥ / فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد ، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد .

فإن الله ـ تعالى ـ أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ [النساء : ٣٦] وهذا أمر بمعالى الأخلاق ، وهو ـ سبحانه ـ يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه الحاكم فى صحيحه(١) ، وقد ثبت عنه فى الصحيح ﷺ أنه قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى »(٢) ، وقال : « اليد العليا هى المعطية ، واليد السفلى السائلة »(٣) ، وهذا ثابت عنه فى الصحيح .

فأين الإحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم ؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له ، من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه ، وأن يُحَبّ كما يحب الله ؟ وأين صلاح العبد فى عبودية الله

---

(١) الحاكم ٢/٦١٣ بلفظ : « بعثت لأتمم صالح الأخلاق » وقال : « حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٧٢) وفى الوصايا (٢٧٥٠) ، ومسلم فى الزكاة (١٠٣٥/ ٩٦) .

(٣) البخارى فى الزكاة (١٤٢٩) ، ومسلم فى الزكاة (١٠٣٣/ ٩٤) كلاهما بلفظ « المنفقة » بدل « المعطية » ، وأحمد ٤/ ٢٢٦ .

والذل له والافتقار إليه من فساده فى عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه ؟ .

فالرسول ﷺ أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التى تصلح أمور أصحابها فى الدنيا والآخرة ، ونهى عن الأنواع الثلاثة التى تفسد أمور أصحابها .

/ ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ [يس : ٦٠ ـ ٦٢] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ [النحل : ٩٨ ـ ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٣٦ ، ٣٧] . ١/١٩٦

وذكر الرحمن هو الذكر الذى أنزل الله على رسوله الذى قال فيه : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾ [طه : ١٢٣ ـ ١٢٦] ، وقد قال تعالى : ﴿ **الَمَصَ . كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف : ١ ـ ٣] ، وقد قال تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ [إبراهيم : ١ ، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ / مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] . ١/١٩٧

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ بفعل ما أمر ، وترك ما حظر ، وتصديقه فيما أخبر ، ولا طريق إلى الله إلا ذلك ، وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين .

وكل ما خالف ذلك فهو من طريق أهل الغى والضلال ، وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا ، فقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ١ ـ ٤] ، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول فى صلاتنا : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] .

وقد روى الترمذى وغيره عن عدى بن حاتم ، عن النبى ﷺ أنه قال : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » قال الترمذى : حديث صحيح[1] . وقال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى .

وكان غير واحد من السلف يقول : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] . /ومن عبد الله بغير ١/١٩٨
علم ، بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٧٧] .

فالأول من الغاوين ، والثانى من الضالين .

فإن الغى اتباع الهوى ، والضلال عدم الهدى . قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] ، وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٢٩٥٤) ، وأحمد ٤/٣٨٧ .

ومن جمع الضلال والغى ففيه شبه من هؤلاء وهؤلاء . نسأل الله أن يهدينا ـ وسائر إخواننا ـ صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

/ فصـــل ١/١٩٩

إذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ « الوسيلة » و« التوسل » فيه إجمال واشتباه يجب أن تعرف معانيه، ويعطى كل ذى حق حقه. فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه. وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك . ويعرف ما أحدثه المحدثون فى هذا اللفظ ومعناه .

فإن كثيراً من اضطراب الناس فى هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها ، حتى تجد أكثرهم لا يعرف فى هذا الباب فصل الخطاب .

فلفظ الوسيلة مذكور فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ [المائدة : ٣٥] ، وفى قوله تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] ، فالوسيلة التى أمر الله أن تبتغى إليه ، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه ، هى ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات . فهذه الوسيلة التى / أمر الله المؤمنين بابتغائها ١/٢٠٠ تتناول كل واجب ومستحب ، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل فى ذلك سواء كان محرماً أو مكروها أو مباحا .

فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول . فجماع الوسيلة التى أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك .

والثانى لفظ الوسيلة فى الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ : « سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة »(١) ، وقوله : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد ، حلت له الشفاعة »(٢) .

فهذه الوسيلة للنبى ﷺ خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة ، وأخبر أنها

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٠ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٤٢ .